الفصل الثالث

«موضوع الفرار من الموت في قصة قوم من بني إسرائيل»

لقد تناول الشعراوي موضوع الفرار والحذر من الموت من خلال خواطره حول قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ)[1]

وتعرض هذه الآية قصة قوم من بني إسرائيل فروا من ديارهم خوفًا وحذرًا من أن يدركهم الموت، ولقد تناول الشعراوي في إطار هذا الموضوع معالجة عدة مسائل مهمة، من ضمنها إشارته إلى بعض الملامح الخاصة بأساليب عرض القرآن لمضامين القصة، والتي من شأنها أن تخدم الموضوع الذي تتناوله القصة القرآنية.

فلقد تناول في إطار معالجته لهذا الموضوع العناصر الآتية:

(أ) رسالة القصة القرآنية للأمة الإسلامية.

---

[1] سورة البقرة، الآية: ٢٤٣.

(ب) إبهام عناصر الزمان والمكان والأشخاص في القصة القرآنية، وأثر ذلك في العظة والعبرة المستفادة من الموضوع الذي تحمله القصة القرآنية.

(ج) الفرار من الموت.

(د) الموت من الأمور التسخيرية.

(هـ) موضوع الفرار من الموت، والجهاد في سبيل الله تعالى.

(أ) رسالة القصة القرآنية للأمة الإسلامية

يستهل الشعراوي حديثه بلفت جمهوره إلى مهمة وهدف هذه القصة وغيرها من القصص القرآني، وكأنه يُنَبِّه مداركهم لتَلَقِي واستيعاب الرسالة المعنية من موضوع هذه القصة، والاستماع إليها بالآذان المتمثلة للعبرة التي تحملها، وليست المستمعة لسرد أحداث القصة فحسب. يقول الشعراوي:

«...أراد الحق - سبحانه وتعالى - للأمة الإسلامية أن تعرف أنَّ أحدًا لن يفر من قدر الله إلا إلى قدر الله، فالأمة الإسلامية هي الأمة التي أَمَّنَهَا على حَمْلِ رسالة ومنهج السماء إلى الأرض إلى أن تقوم الساعة، فلم يعد محمد ﷺ يأتي ولا نبي يبعث، ولا بُدَّ لمثل هذه الأمة أن تُرَبَّى تربية تناسب مهمتها التي حمَّلها الله إياها. ولا

بُدَّ أن يضع الحق – سبحانه وتعالى – بين يدي هذه الأمة كل ما لاقته وصادفته مواكب الرسل في الأمم السابقة؛ ليأخذوا العبرة من المواقف، ويتمثلوا المنهج من نظريات تتلى، ولكن من واقع قد درس، ووقع في المجتمع»[1]

ثم يعمق الشعراوي لبعض المعاني العقدية في نفوس جمهوره؛ ليؤصل ويثبت من خلالها مسائل مهمة في مجال العقيدة في عقول وقلوب المؤمنين، حتى يصح معها حسن الاعتقاد وكمال الإيمان ورسوخه؛ لأنَّ الفهم الجيد لمسائل العقيدة يقي ويحمي من مزالق فكرية عدة ينجم عنها العديد من التصرفات السلبية التي تعبر عن الفهم الخاطئ للعديد من مسائل العقيدة، ويظهر لنا تفعيل الشعراوي للقصة ومدلولاتها التي تعتري الجانب العقدي لدى الناس، ويتجلَّى في هذا سعيه الدائم لربط الموضوع القرآني بالواقع الإنساني؛ لتحقيق الهداية المنشودة للمجتمع الإسلامي من خلال الهدي القرآني.

ويشير الشعراوي إلى مضمون الموضوع الذي تحمله القصة، وربطه بواقع الأمة الإسلامية، فموضوع القصة كما يره الشعراوي أنه: «أراد الحق – سبحانه وتعالى – أن يلفتنا إلى أساس المسألة،

---

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ص١٠٤٧.

وهو أنه سبحانه واهب الحياة، ولا أحد غيره، وواهب الحياة هو الذي يأخذها، ولم يضع لهبة الحياة سببًا عنده للناس، إنما هو سبحانه الذي يحيي ويميت...»[1]، إذن فمدلول القصة يطرح هذه القضية، ويعالجها مجسدًا في موقف هؤلاء القوم من بني إسرائيل الذين فروا خشية الموت؛ لأنهم قد غفلوا أنَّ صاحب هذه الهبة - سبحانه وتعالى - هو وحده الذي يملك الموت والحياة، ولا يترك الشعراوي جمهوره دون أن يربطه بموضوع القصة، ويضع على عاتقه مسئولية عرض القرآن عليه لمثل هذا القصص، ويحمله مسئولية هذا بشكلٍ انسيابي، ودون توجيه مباشر.

يقول الشعراوي: «ويعالج الحق هذه المسألة - وهي أنَّ الله هو واهب الحياة - بواقع سبق أن عاشه موسى - عليه السلام - مع قومه وهم بنو إسرائيل، ونعرف أن قصة موسى مع قومه قد أخذت أوسع قصص القرآن؛ لأنها الأمة التي أتعبت الرسل، وأتعبت الأنبياء، وكان لا بُدَّ أن يعرض الحق هذا الأمر برمته على أمة محمد ﷺ من واقع ما حدث، فقال سبحانه: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ)[2]»[1]

---

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ص١٠٤٤-١٠٤٥.

[2] سورة البقرة، الآية: ٢٤٣.

وبهذا الربط بين ماضي أمة التوحيد وحاضرها في نسق واحد، يُظْهِرُ الشعراوي أهمية عرض القرآن للأمة المحمدية قصص الأولين. وفي الوقت نفسه يوجه الجمهور بهذه الطريقة لامتثال معاني الموضوع الذي حملته القصة في أحداثها الوجيزة.

(ب) إبهام عناصر الزمان والمكان والأشخاص في القصة القرآنية

يطرح الشعراوي مسألة مهمة في أسلوب عرض القرآن للقصص، وهو حكمة الله – تعالى – في إبهامه أحيانًا عناصر الزمان والمكان والأشخاص في القصة القرآنية، وفائدة ذلك على الموضوع المتناول فيها. فلقد تناول هذا المضمون في إطار موضوعي لخص من خلاله ضرورة إحكام النظر إلى المراد الحقيقي من القصص القرآني؛ وذلك حتى لا تستغرق عقولنا فيما لا جدوى منه؛ فنطلب علمًا لا ينفع وجهلًا لا يضر.

يقول الشعراوي حول هذا: «...إنَّ القرآن لو أراد ذلك لفعل – أي تحديد المكان والزمان والأشخاص – ولو كان ذلك له أصل في العبرة والعظة لبيَّنه الحق لنا، وأنتم تريدون إضعاف مدلول القصة بتلك التفاصيل؛ لأنَّ مدلول القصة إن تحدد زمنها، فربما قيل: إنَّ

---

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ ١٠٤٥.

الزمان الذي حدثت فيه كان يحتمل أن تحدث تلك المسألة والزمن الآن لم يعد يحتملها. وربما قيل: إنَّ هذا المكان الذي وقعت فيه يحتمل حدوثها، إنما الأمكنة الأخرى لا تحتمل، وكذلك لو حددها بشخصيات معينة لقيل: إنَّ القصص لا يمكن أن تحدث إلا على يد هذه الشخصيات؛ لأنها فلتات في الكون لا تتكرر»[1] ثم يزيد الشعراوي هذه المسألة وضوحًا عن طريق توضيح فائدة هذا الإبهام ومراميه في القصة القرآنية.

يقول الشعراوي: «إنَّ اللّٰه حين يبهم في قصة ما عناصر الزمان والمكان والأشخاص وعمومية الأمكنة إنه – سبحانه – يعطي لها حياة في كل زمان، وفي كل مكان، وحياة مع كل شخص، ولا يستطيع أحد أن يقول: إنها مشخصة»[2]

واستحضر الشعراوي أمثلة على ذلك من النص القرآني، يجسد من خلالها فوائد إبهام القرآن لبعض العناصر في القص القرآني، موضحًا أنَّ هذا يُعد من حسن وسائل عرض القصة القرآنية لموضوعاتها، حيث أنها تمثل عبرًا، لا تقص تاريخًا يراعي

---

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ ١٠٤٥.

[2] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ ١٠٤٦.

في عرضه استقصاء كل صغيرة وكبيرة، ولهذا يعلل الشعراوي ذلك الإبهام الذي يظهر أحيانًا في بعض القصص القرآني بأنه «أمر لا يهم؛ لأنَّ القرآن لا يعطي تاريخًا، فلم يقل متى كانت الوقائع ولا زمنها، ولا على يد من كان هذا، ولا يحدد أشخاص القضية كل ذلك لا يهتم به القرآن»[1]

ويستحضر الشعراوي نماذج من قصص أهل الكهف، وقصة امرأتي (نوح ولوط) عليهما السلام، وقصة (امرأة فرعون وقصة مريم) عليها السلام؛ ليُعَبِّر من خلال هذا العرض عن المضمون الذي يعالجه، فينبه كل من ينقب «عن زمن أهل الكهف، ومكان أهل الكهف، وأسماء أهل الكهف، وكلب أهل الكهف. نقول لهؤلاء: أنتم لا تثرون القصة؛ لأنكم عندما تحددون لها زمانًا ومكانًا وأشخاصًا، فيقال: إنها لا تنفع إلا للزمان الذي وقعت فيه»[2] فيؤكد الشعراوي أنَّ السعي وراء كل هذه التفاصيل التي لم يعرض لها القرآن من شأنها إضعاف مدلولات القصة القرآنية، وإفقادها حيويتها، وإخراجها عن أهدافها التي سيقت من أجلها.

---

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ ١٠٤٥.

[2] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ ١٠٤٦.

ويسوق الشعراوي الشاهد القرآني الثاني الذي يمثل تشخيص القرآن لبعض الأشخاص دون بعض، وحكمة ذلك، وفائدته: «إذا أراد الحق أن يبهم فقد أبهم ليعمم، وإن أراد أن يحدد فهو يشخص. ومثال ذلك قوله تعالى: (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ)[1] ولم يحدد الحق هنا اسم أي امرأة من هاتين المرأتين، بل ذكر فقط الأمر المهم، وهو أنَّ كلًّا منهما كانت زوجة رسول كريم، ومع ذلك لم يستطع نوح – عليه السلام – أن يستلب العقيدة الكافرة من زوجته، ولم يستطع لوط – عليه السلام – أن يستلب العقيدة الكافرة من زوجته...»[2]

ويبرهن الشعراوي بهذا الشاهد على أنَّ القرآن قد ألقى بالضوء في القصة على الأمور المهمة، فركز على موضوع العبرة التي تحملها القصة، وهي «أنَّ اختيار العقيدة هو أمرٌ متروك للإنسان، فحرية العقيدة أساس واضح من أسس المنهج»[3]

---

[1] سورة التحريم، الآية: ١٠.

[2] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ ١٠٤٦.

[3] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ ١٠٤٦.

وأورد الشعراوي مثالًا آخر وهو قصة امرأة فرعون، وعلق من خلاله على عدم تحديد القرآن لاسمها. يقول: «وأيضًا قال سبحانه في امرأة فرعون: (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)[1] لم يذكر اسمها؛ لأنه لا يهمنا في المسألة، المهم أنها امرأة من ادَّعَى الألوهية، ومع ذلك لم يستطع أن يقنع امرأته بأنه إله»[2]

ويأتينا الشعراوي بشاهدٍ آخر من النص القرآني، حينما يذكر النص القرآني، ويحدد أشخاصًا بعينها مع ذكره للحكمة من ذلك التشخيص والتحديد. فيقول: «...لكن حينما أراد الله – سبحانه وتعالى – أن يشخص قال في (مريم) عليها السلام: (وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ)[3] لقد ذكرها الحق وذكر اسم والدها؛ لأنَّ الحدث الذي حدث لها لن يتكرر في امرأةٍ أخرى»[4]

---

[1] سورة التحريم، الآية: ١١.

[2] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ ١٠٤٦-١٠٤٧.

[3] سورة التحريم، الآية: ١٢.

[4] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ ١٠٤٧.

ولقد تناول الشعراوي هذا المضمون؛ لأنه يمثل سمة أساسية في سياق القصة التي نحن بصدد خواطره حولها، فقد عرض القرآن لهذه القصة في إيجازٍ شديدٍ دون تفاصيل، ولقد وقف الشعراوي هذه الوقفة السابقة؛ حتى يضع يد جمهوره على الجزء المهم والحيوي من القصة القرآنية، وكذلك كي يستنكر في شكل عملي على المفسرين الذين وقفوا حيال هذه المسائل مليًّا، وتسابقوا في عرض المرويات، وطرح الآراء حولها. يقول الشعراوي حول قوله تعالى: «(أَلَمۡ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنۡ دِيَارِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ الۡمَوۡتِ...) [1] ونعرف من هذا القول أنه على الخروج إنما كانت مخافة أن يموتوا، أما عن سبب هذا الموت فلم تتعرض له الآيات، وإن تعرض المفسرون له، وقالوا كلامًا طويلًا، فمنهم من قال: إنهم خرجوا فرارًا من عدوٍ قد سُلط عليهم ليستأصلهم، المهم أنهم أرادوا أن يفروا خوفًا من الموت» [2] فالشعراوي يدعو بضرورة ألا نذهب في تيه الروايات وتأويلات العلماء التي لا تسمن ولا تغني من جوع، فأغراض القصة القرآنية أكبر من ذلك، والقرآن حين يعرض لأية مسألة في القصص القرآني أو في غيره «يعالج تلك المسألة من

---

[1] سورة البقرة، الآية: ٢٤٣.

[2] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ ١٠٤٥.

الزاوية التي تهم، ولكن ما هو السبب، ولماذا الخروج؟ فذلك أمرٌ لا يهم؛ لأنَّ القرآن لا يعطي تاريخًا...، والذي يُتعبون أنفسهم في البحث عن تفاصيل تلك الأمور في القصص القرآني، إنما يحاولون أن يربطوا الأشياء بزمنٍ مخصوصٍ، ومكانٍ مخصوصٍ، وأشخاص مخصوصة»[1]

وقبل المُضيّ قُدُمًا مع خواطر الشعراوي حول موضوع الفرار من الموت من خلال قصة هؤلاء القوم من بني إسرائيل، الذين لم يحدد القرآن مكانهم، ولا زمانهم، ولا أشخاصهم، ولا أعدادهم حال فرارهم، ولا سبب خروجهم، أودُّ عرض ما أدلى به بعض أعلام المفسرين حول هذا، لقد ساق الطبري العديد من المرويات التي تسعى إلى تحديد المكان الذي حدثت فيه هذه القصة، وعرض لسبب فرارهم هاربين من الموت يقول: «عن ابن عباس (أَلَمۡ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنۡ دِيَارِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ الۡمَوۡتِ) قال: كانوا أربعة آلاف، خرجوا فرارًا من الطاعون، قالوا: نأتي أرضًا ليس فيها موت...»[2] ثم أتى بمروية أخرى لابن عباس توضح أنَّ سبب خروجهم هو الفرار من الجهاد. يقول: «خرجوا فرارًا من الجهاد في سبيل

---

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ ١٠٤٥.

[2] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج٢/ص٦٠٠.

اللّه، فأماتهم اللّه، ثم أحياهم وأمرهم أن يجاهدوا عدوهم، فذلك قوله: (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)[1] »[2] إذن لقد حدد الطبري بذلك سبب فرارهم، وهو أحد شيئين: إمَّا الخوف من الطاعون، أو الخوف من الجهاد في سبيل اللّه تعالى.

وكذا استحضر الطبري الأقوال التي تحدد المكان في القصة. يقول: «كانت قرية يقال لها داوردان[3] قبل واسط، وقع بها الطاعون...»[4]

---

[1] سورة البقرة، الآية: ٢٤٤.

[2] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج٢/ص٦٠١.

[3] لقد أورد اسم هذه البلدة وهي (داوردان) بناءً على مروية لابن عباس في هذا كل من:
الزمخشري، الكشاف، ج١/ص٢٨٦.
البغوي، معالم التنزيل، ج/ص١٦٦.
الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٢/ص١٠٣.
القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١/ص١١٤٢.
ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج١/ص٤٤٠.
الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، ج١/ص١٧٢.
الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، ج١/ص٥٥٢.

[4] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج٢/ص٦٠١.
ولقد أورد الزمخشري ما أورده الطبري، ولكنه مختصرًا إياه في سطور قلائل.
الزمخشري، الكشاف، انظر ج١/ص٢٨٦.

ولقد كان هذا عرض وجيز وسريع حول سعي بعض العلماء إلى تحديد بعض ما أُبهم في القصة من الأمكنة والأزمنة والعلل والأسباب، وهذا ما قد نَبَّه الشعراوي إلى أنه لا يجوز الخوض في مثلها، حتى لا نفقر القصة بعرض مثل هذه التفاصيل.

وموقف الشعراوي هذا قد التزمه ابن عطية قبلًا، بل وتعدى هذا إلى نقده لهذه الروايات التي جاءت تحمل أخبارًا حول هؤلاء الهاربين من ديارهم حذر الموت، فينقد هذه الأخبار قائلًا: «القصص كله لين الأسانيد، وإنما اللازم من الآية أنَّ الله – تعالى – أخبر نبيه محمدًا – ﷺ – عن قوم من البشر خرجوا من ديارهم فرارًا من الموت، فأماتهم الله – تعالى – ثم أحياهم ليُرِيَهِم، وكل من خلف من بعدهم أنَّ الإماتة إنما هي بيد الله – تعالى – لا بيد غيره، فلا معنى لخوف خائف، ولا لاغترار مغتر»[1]

ومن هنا يرى ابن عطية أنَّ هذا القصص الوارد في تلك المرويات التي حفلت بها كتب المفسرين، ليست من حقائق العلم، وبالتالي علينا أن نتوقف عن ترديد مثلها، وأن ندرم البغية الحقيقية من وراء هذه الآية، التي حملت قصة هؤلاء القوم الفارين من قدر الله تعالى، والتي ذكر في حكمتها ابن عطية قائلًا: «لقد جعل الله –

---

[1] ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق، عبد السلام عبد الشافي محمد، ج١/ص٣٢٨، ط. دار الكتب العلمية بيروت (لبنان).

تعالى – هذه الآية مقدمة بين يدي أمر المؤمنين من أمة محمد ﷺ بالجهاد»[1]

ونخلص من هذا إلى أنَّ الشعراوي قد سبقه من وقف هذا الموقف الذي اتخذه، وهو ضرورة الوقوف على الغرض الحقيقي من القصة، وهو كما بين أيدينا درأ «الحذر والفرار من الموت» عن الناس، فهذا ما عالجته هذه القصة، ذلك دون الإسهاب فيما لا جدوى منه من تفاصيل.

ولذلك يقول الشعراوي: «..فالذين يحاولون أن يقووا القصة بذكر تفاصيلها نقول لهم أنتم تُفقرون القصة، فالمهم أنَّ الحق – سبحانه وتعالى – يريد أن يقول: إنهم خرجوا من ديارهم وهم ألوفٌ حذر الموت»[2]

ثم يقف بنا الشعراوي وقفة لغوية عند قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ) يعرض لها في إطار موضوعي صغير خاص بهذا التعبير القرآني على هامش معالجاته لهذا الموضوع، فيتساءل الشعراوي هل رأى رسول الله – ﷺ – والمؤمنون بعده إلى أن تقوم الساعة هذه القصة، حتى يقول الله تعالى: (أَلَمْ تَرَ)، فلقد وصل إلى سمعه وإلى

---

[1] ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج١/ص٣٢٨.

[2] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ ١٠٤٧.

أسماع المؤمنين أخبار هؤلاء القوم بوسيلة السماع، لا بوسيلة الرؤية «ونحن نعلم أن الرؤية بالعين، والسماع يكون بالأذن، والتذوق باللسان، والشم يكون بالأنف، واللمس يكون باليد، إنَّ هذه هي الوسائل التي تعطي للعقل إدراكًا وإحساسًا لكي يعطي معنويات، وفي ذلك اقرأ قوله تعالى: (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)[1] إذن فوسيلة العلم تأتي من الحواس، وسيدة الحواس هي العين»[2] ويشير الشعراوي إلى بلاغة القرآن في استعمال (أَلَمْ تَرَ) بدلًا من «ألم تسمع» حيث أنَّ الله – تعالى – حين يعبر بـ (أَلَمْ تَرَ) فهو سبحانه «يخبرك بشيء سابق عن وجودك أو بشيء متأخر عن وجودك، فعليك أن تستقبله استقبالك لما رأيته؛ لأنَّ الله الذي خلق الحواس هو – سبحانه – أصدق من الحواس»[3]

ثم استحضر الشعراوي من النص القرآني مثالًا آخر على استعمال القرآن لتعبير (أَلَمْ تَرَ) وهو سورة الفيل، والتي تحكي قصة أصحاب الفيل، ولهذا استهلت السورة آياتها بتعبير (أَلَمْ تَرَ) والنبي

---

[1] سورة النحل، الآية: ٧٨.

[2] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ ١٠٤٧.

[3] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ ١٠٤٨.

- ﷺ - وُلِدَ في عام الفيل، ولم يشهد وقوع هذه الحادثة، ومع ذلك ابتدأ السورة بقوله تعالى: «(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)[1] والمعنى من ذلك هو «ألم تعلم»، «ألم تسمع مني»، ولم يقل «ألم تسمع» لكي يؤكد له أنه سيقول له حدثًا لم يره، ولكن الحق سيخبره به، وإخبار الحق له كأنه يراه، فكأن الله يقول: إنَّ هذه مسألة مفروغ منها، وساعة أخبرك بها فكأنك رأيتها»[2]

---

[1] سورة الفيل، الآية: ١.

[2] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ ١٠٤٨.

لقد ذكر الطبري في معنى (أَلَمْ تَرَ) أي «ألم تر يا محمد؟ وهو من رؤية القلب لا من رؤية العين؛ لأنَّ نبينا محمد ﷺ لم يدرك الذين أخبر الله عنهم هذا الخبر»، الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج٢/ص٢٤٣.

وأورد الزمخشري في معناها أنها «تقرير لمن سمع بقصتهم من أهل الكتاب وأخبار الأولين وتعجيب من شأنهم»، الزمخشري، الكشاف، ج١/ص٢٨٦.

وأورد البغوي تقريبًا أغلب ما أورد الطبري وزاد عليه بأن «كل ما في القرآن ألم تر، ولم يعاينه النبي ﷺ، فهذا سبب وجهه، ألم تر إلى الذين خرجوا ...» البغوي، معالم التنزيل، ج١/ص١٦٧.

وذكر الطبرسي في معنى (أَلَمْ تَرَ) «أي ألم تعلم يا محمد أو أيها السامع أو لم ينته علمك إلى خبر هؤلاء (الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ)» الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٢/ص١٠٣.

ويشير الرازي إلى استعمالات هذا اللفظ قائلًا: إنَّ الرؤية تعني «رؤية البصيرة والقلب، وذلك راجع إلى العلم، كقوله تعالى: (أَرِنَا مَنَاسِكَنَا)»، ثم يشير أي استعمال

(ج) الفرار من الموت

يتناول الشعراوي في إطار هذا الموضوع معالجة أحد المسائل العقدية الهامة، وهي «الخوف والفرار من الموت» وذلك من منطلق أنَّ هذا الموضوع يشغل كافة الناس في كل زمانٍ ومكان، شأنه شأن سائر الموضوعات الغيبية التي تتعلق بقدر الله تعالى.

=آخر للفظ، وهو استعماله لمخاطب تقدم علمه به، وفيما لا يكون، وبالتالي «يجوز أن يكون الرسول ﷺ لم يعرف هذه القصة إلا بهذه الآية، ويجوز أن نقول كان العلم بها سابقًا على نزول هذه الآية، ثم إنَّ الله – تعالى – أنزل هذه الآية على وفق ذلك العلم» الرازي، مفاتيح الغيب، ج٣/ص٤٧٣.

ولقد ذكر القرطبي في معناها ما ذكره سابقوه، وزاد عليه بأن «المعنى عند سيبويه تنبيه إلى أمر الدين»، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١/ص١١٤١.

وذكر سليمان بن عمر العجيلي الشافعي أن (أَلَمْ تَرَ) «إيقاع للمخاطب في أمرٍ عجيبٍ غريب؛ أي في التعجب منه، فعلى هذا يستفاد من الآية أنَّ المخاطب لم يسبق له علم بتلك القصة قبل نزول الآية»، سليمان بن عمر العجيلي الشافعي، الفتوحات الإلهية، ج١/ص٩٩، ط. عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر.

وذكر الألوسي أنها «للتعجب والتقرير والتذكير لمن علم بما يأتي كالأخبار وأهل التواريخ، وقد تذكر لمن لا يكون كذلك، فتكون لتعريفه وتعجبه...واشتهرت في ذلك الاستخدام، فأجريت مجرى المثل بأنَّ شبه حال من «لم ير» الشيء بحال من رآه»، الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، ج١/ص٥٥٢.

لهذا عالج الشعراوي مسألة إبهام بعض القصص القرآني الكريم عناصر الزمان والمكان، والذي ظهر في هذه القصة؛ ليضفي بهذه المعالجة القرآنية على فاعلية هذا الأسلوب في طرح موضوع القصة، وكذلك عالج دور القصة القرآنية في هدي المجتمع، إيمانًا منه بأنَّ من وظائف القصة القرآنية تجسيدها للموضوعات الخاصة بالعقيدة عبر الأزمان وغيرها من الموضوعات، وذلك من منطلق أنَّ القصص القرآني جاء عونًا وتثبيتًا في معالجة موضوعات القرآن العامة[1]

ولقد استهل الشعراوي تناوله لهذه القصة القرآنية القصيرة المبهمة الأزمة والأمكنة بتلك المعالجات، حتى يصل بجمهوره إلى لب الموضوع الذي تعالجه القصة وهو يقول الشعراوي: «ويحدثنا الحق عن هؤلاء القوم، فيقول: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ)[2] إنه سبحانه يخبرنا بأنَّ الأمر الذي يفرون منه لاحق بهم؛ لأنه لا يحتاط من قدر الله أحد؛ لذلك أماتهم الله، ثم أحياهم ليتعظوا، ولو أخَّر الله

---

[1] محمد متولي الشعراوي، في رحاب الهدي القرآني، ط. دار مسلم بمطابع الأخبار، راجع ص٣.

[2] سورة البقرة، الآية: ٢٤٣.

الإحياء إلى يوم البعث فلن تؤثر العبرة؛ لأنه بعد يوم القيامة لا اعتبار ولا تكليف...»[1]

ثم يعلل الشعراوي إبهام الله – تعالى – في القصة علة خروج القوم من بني إسرائيل من ديارهم ليطرح من وحيها مسألة الحذر من الموت أو من القدر بشكل عام، ويرسخ في أذهان جمهوره لمضمون منهم، وهو أنَّ أحدًا لن يفر من قدر الله – تعالى – وأنَّ الموت والحياة بيد الله – تعالى – فلا حاجة إذن تدعوا إلى الهلع أو الفزع.

ولهذا ركز على علة الخروج التي أشارت إليها الآية، ونقد ما سوى ذلك مما ذهب المفسرون إليه حول تلك المسألة. يقول: «وفي قوله تعالى: (حَذَرَ الْمَوْتِ) بيان لعلة الخروج، فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يبين لهم أنَّ هذه قضية لا ينفع فيها الحذر، أنتم خرجتم خوفًا من الموت سأميتكم، والذي كنتم تطلبونه بعد الموت سأحدث لكم غيره؛ لذلك أحياهم إحياء آخر حتى يتحسروا، ويأخذوا أجلهم المكتوب (ثُمَّ أَحْيَاهُمْ) حتى يبين لكم أنَّ أمر الموت بيده سبحانه،

---

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ ١٠٤٨.

سواء كان خوفهم من الموت نابعًا من أعدائهم أو من وباء وطاعون، فالأمر في جوهره لا يختلف...»[1]

ويضيف الشعراوي تعليلًا آخر يدعم به هذه الفكرة، وهو «لو أن الآية ذكرت أنهم خرجوا خوفًا من وباءٍ ما كنا فهمنا منها احتمال خروجهم خوفًا من أعدائهم، إذن إبهام السبب المباشر في القصة أعطاها ثراءً»[2] ولكن أغلب كتب المفسرين سعت موضحةً لأسباب فرار هؤلاء الهاربين من ديارهم، فمنهم من ردها إلى الخوف من الطاعون أو الخوف من الجهاد[3] وقليلٌ منهم من لم يقحم نفسه في خضم البحث وراء تلك الأسباب.

---

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ ١٠٤٨.

[2] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ ١٠٤٩.

[3] ومن هؤلاء المفسرين الذين اهتموا بذكر تلك الأسباب:

الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، انظر ج٢/ص٦٠٠-٦٠٥.

الزمخشري، الكشاف، انظر ج١/ص٢٨٦.

البغوي، معالم التنزيل، انظر ج١/ص١٦٦-١٦٧.

الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، انظر ج٢/ص١٠٤.

الرازي، مفاتيح الغيب، انظر ج٣/ص٤٧٤-٤٧٥.

القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، انظر ج١/ص١١٤٢-١١٤٧.

ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، انظر ج١/ص٤٤٠-٤٤١.

التستري، تفسير التستري، انظر ص٣٦-٣٧.

ويقول الشعراوي في قوله تعالى: (وَهُمْ أُلُوفٌ)[1] إنَّ الله تعالى «يبين لنا مدى الخيبة والغباء الذي كانوا فيهم؛ لأنهم كيف يخرجون

الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، انظر ج١/ص١٧٢-١٧٣.

الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، انظر ج١/ص٥٥٣.

[1] لقد ذكر الطبري في معنى الألوف أنه عنى بها «كثرة العدد، دون قول من قال: «عنى به الائتلاف» بمعنى ائتلاف قلوبهم» الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج١/ص٦٠٤.

وكذلك اعترض الزمخشري على من فسر (وَهُمْ أُلُوفٌ) على أنهم متألفون، وذكر أنَّ هذا «من بدع التفاسير» وذكر أن معناها هو «الألوف الكثيرة» الزمخشري، الكشاف، ج١/ص٢٨٦.

وذكر البغوي أنَّ ألوف «جمع ألف، وقيل: مؤتلفة قلوبهم جمع ألفٌ...والصحيح أنَّ المراد منه العدد» البغوي، معالم التنزيل، ج١/ص١٩٧.

وأورد الطيرسي أن أهل التفسير أجمعوا على أنَّ المراد بألوف هنا «كثرة العدد إلا ابن زيد، فإنه قال: معناه خرجوا مؤتًا في القلوب، لم يخرجوا عن تباغض»، الطبرسي، مجمع ابيان في تفسير القرآن، ج٢/ص١٠٣.

ولقد أورد الرازي الرأيين، وذكر أنَّ من يرى بأنَّ ألوف بمعنى مؤتلفي القلوب يبنون ذلك على أنَّ «الألوف جمع آلف كقعود وقاعد، وجلوس وجالس» الرازي، مفاتيح الغيب، ج٣/ص٤٧٥.

ولكنه يذكر أنَّ المقصود من ألوف هو كثرة العدد، ومؤتلفي القلوب تعني «كون كل واحد منهم آلفًا لحياته محبًا لهذه الدنيا...وورود الموت عليهم، وهم كثرة عظيمة، يفيد مزيد اعتبار بحالهم؛ لأنَّ موت جمع عظيم دفعة واحدة لا يفيد وقوعه اعتبارًا

خائفين من الأعداء وهم ألوف مؤلفة، ولم يظهر واحد من هؤلاء الألوف ليقول لهم: (إنَّ الموت والحياة بيد اللّه...)»[1]

ولقد غلب الشعراوي المعنى الذي يقتضيه ظاهر اللفظ، دون أن يلجأ إلى التأويلات التي عرض المفسرون لها، فهؤلاء القوم من بني إسرائيل رغم كثرة عددهم خرجوا (حَذَرَ الْمَوْتِ) أي «لحذر الموت»[2] وبتعبير آخر: «خرجوا من حذر الموت»[3] أو «من خوف الموت»[4] فالخوف والحذر من الموت هو العلة الحقيقية لخروجهم وفرارهم، وأراد اللّه – تعالى – أن يعلمهم أنَّ الفزع والجزع والهلع والحذر، لا يغير مصيرًا ولا يدفع موتًا، ولا يرد قضاء اللّه – تعالى – فلقد خلق اللّه – تعالى – هذا الكون على «سنن مضبوطة ومقادير معينة، ولم يكن صادرًا عن طريق الصدفة، التي لا تعتمد على نواميس يجري عليها، ويسير على مقتضاها، ويؤدي بها مهمته»[5]

عظيمًا، فأمَّا ورود الموت على قوم بينهم ائتلاف ومحبة، كوروده وبينهم اختلاف في أنَّ وجه الاعتبار لا يتغير ولا يختلف» الرازي، مفاتيح الغيب، ج٣/ص٤٧٥.

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ ١٠٤٩.

[2] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١/ص١١٤٣.

[3] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج٢/٦٠٥.

[4] الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٢/ص١٠٤.

[5] الإمام/ محمود شلتوت، الفتاوى، ص٤٧، ط. دار الشروق.

وهذا ما أراد الشعراوي أن يؤصله في قلوب جمهوره، وهو أنه لا مجال للحذر من الموت؛ لأنَّ كل شيء يخضع لمشيئة الله – تعالى – وله مقدار وأجل معلوم.

(د) الموت أمر تسخيري

لقد شرع الشعراوي في توضيح أنَّ مسألة الحياة والموت من الأمور التسخيرية الإلهية، فهما من واهب الحياة وقابضها وقتما شاء وكيفما شاء، وأنَّ هذا نابع من طلاقة قدر الله تعالى، ولهذا يجب أن يتأصل في النفوس هيمنة الله – تعالى – على كل شيء، كما عبر القرآن عن ذلك في قوله تعالى:

(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)[1]

ولذا نرى الشعراوي عالج هذه المسألة من عدة جوانب، فنراه يفرق بين الموت والقتل[2] من خلال استعراض ما ورد عن ذلك في

---

[1] سورة الأنعام، الآية: ١٨.

[2] يقول الشعراوي: «الموت يختلف عن القتل...الموت هو أن تخرج الروح من الجسد والبنية سليمة، ولا يميت إلا الله سبحانه وتعالى، ولكن القتل يستطيعه الإنسان بآلة حادة أو بطلقة رصاص، وفي الحالتين تغادر الروح الجسد، في الحالة الأولى (وهي الموت) تخرج الروح من الجسد والبنية كاملة، وفي (حالة القتل) لا بُدَّ أن تهدم البنية أولًا قبل أن تخرج الروح» الشعراوي، الحياة والموت، ص٦١.

القرآن الكريم؛ ليوضح لجمهوره أنَّ أمر الموت أمر تسخيري من عند اللّه – تعالى – فحينما قال لهم الحق: (مُوتُوا)، لا تعني دلالة هذا التعبير أنه بإرادتهم؛ لأنَّ هناك فرق بين الموت الذي هو أمرٌ من عند اللّه – تعالى – وبين القتل الذي يكون بإماتة الرجل نفسه؛ أي بقتلها، فهناك فرقٌ كبير بين الموت والقتل «فالموت يأتي بلا سبب من الميت، ولكن القتل ربما يكون بسبب الانتحار أو بأي وسيلة أخرى، المهم أنه قتلٌ للنفس وليس موتًا، ويوضح لنا الحق الفرق بين القتل والموت حين يقول: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ[1] وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ)[2]»[3] فالحق – سبحانه

---

[1] (انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ) «أي رجعتم إلى دينكم الأول» الخازن، معالم التنزيل، ج١/ص٢٨١.

[2] سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

[3] ولقد أورد الزمخشري أنه «لما رمى عبد اللّه بن قمئة الحارثي رسول اللّه ﷺ بحجر فكسر رُباعيَّته وشج وجهه، أقبل يريد قتله، فذب عنه ﷺ مصعب بن عمير، وهو صاحب الراية يوم بدر ويوم أحد، حتى قتله ابن قمئة، وهو يرى أنه رسول اللّه ﷺ، فقال: قتلت محمدًا، وصرخ =صارخ، ألا إنَّ محمدًا قد قتل، وقيل: كان الصارخ الشيطان، ففشا في الناس خبر قتله، فانكفؤا، فجعل رسول اللّه ﷺ يدعو: «إليَّ عباد اللّه» حتى انحازت إليه طائفة من أصحابه، فلامهم على هربهم، فقالوا: يا

وتعالى – جاء بالموت كمقابل للقتل، وأوضح في الآية التالية أمر الموت حين قال: (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ)[1] [2]

فموضوع الموت من المواضيع العقدية المهمة التي أراد الشعراوي بوقفته حيالها، من خلال هذه القصة أن يكشف لجمهوره عن جوانب التقصير لديهم في استيعابهم لهذه القضية العقدية، والتي ينتج عن سوء فهمها العديد من الأخطار السلوكية في مجال العقدية، كما فعل أصحاب هذه القصة، فسعى الشعراوي إلى إظهار أنَّ موضوع الموت من الأمور العقدية، التي لا شأن للإنسان بالتدخل فيها؛ لأنَّ «أمر الموت مرهون بمشيئة الله، وطلاقة قدرته، وتحديده لكل أجل[3] بوقتٍ معلوم لا يتقدم ولا يتأخر»[1]

=رسول الله ﷺ فديناك بآبائنا وأمهاتنا، أتانا خبر قتلك، فرعبت قلوبنا فولينا مدبرين، فنزلت» الزمخشري، الكشاف، ج١/ص٤١٣.

[1] سورة آل عمران، الآية: ١٤٥.

[2] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ ١٠٤٩-١٠٥٠.

[3] «استعمال الفقهاء للفظ "أجل" لا يخرج عن بعض الاستعمالات اللغوية، فإنه يدور في اصطلاحاتهم بمعنى المدة، وبمعنى نهاية الوقت، وبمعنى حلول الدين، وهم

ويرى الشعراوي أنَّ مما مَثَّلت له هذه القصة أنَّ البشر ليس لهم قرار أو إرادة في مسألة الموت أو العودة للحياة؛ لذلك أراد الله – تعالى – أن يُصوِّر ذلك المغزى من خلال هذه القصة، فأصدر الحق – تبارك وتعالى – أمره: « (فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ..) فلم يكن بإرادتهم أن يصنعوا موتهم، أو أمر عودتهم إلى الحياة، لكنه أمر تسخيري، إنهم يموتون بطلاقة قدرته المتمثلة في (كن فيكون) ويعودون إلى الحياة بتمام طلاقة القدرة المتمثلة في (كن فيكون)...إنه أمر تسخيري، كما قال الحق من قبل للأرض والسماء: (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)[2] »[1]

يستعملون كلمة التأجيل أيضًا بالمعنى اللغوي، وقد جاء الأجل في القرآن بمعنى مدة العدة في قول الله سبحانه وتعالى: (وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ) سورة الطلاق، الآية: ٤، والمراد مدة تربصهن طوال نهاية المدة المضروبة في قوله تعالى: (إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢، وغير ذلك من المعاني التي بينتها اللغة».

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، موسوعة الفقه الإسلامي، ج٣/ص٢٣، ط. وزارة الأوقاف.

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ١٣٩٤هـ.

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ ١٠٤٩-١٠٥٠.

[2] سورة فصلت، الآية: ١١.

ولقد استحضر الشعراوي هذا الشاهد القرآني في معالجته الموضوعية لهذه المسألة؛ ليجسد من خلاله أمر التسخير، ثم أردف هذا الشاهد بمزيد من التفصيل لمعنى الأمر التسخيري يقول: «لقد شاءت قدرته أن يخلق السماء على هيئة دخان فوجدت، وخلقه للسماوات والأرض على وفق إرادته وهو هين عليه بمنزلة ما يقال للشيء احضر راضيًا أو كارهًا، فيسمع الأمر ويطيعه، وهذه أمور تسخيرية من الخالق الأكرم، وليس للمخلوق من سماوات وأرض وما بينهما إلا الامتثال للأمر التسخيري من الخالق عز وجل، فعندما يقول الحق سبحانه: (مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ) فهذا أمر تسخيري بالموت، وأمر تسخيري بعودتهم إلى الحياة»[٢]

ويعضد هذا ما قاله الإمام/ يحيى بن الحسين أنَّ الأمر التسخيري والأمر التكويني يعني «إذا كوناه كان بلا كلفة ولا اضطراب ولا تخيل ولا إضمار ولا تفكر»[٣] فليس هناك وقت بين إرادة الله – تعالى – لشيءٍ وبين تكوينه، وليس هناك متقدم أو

---

[١] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ ١٠٥٠.

[٢] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ ١٠٥٠.

[٣] الإمام/ يحيى بن الحسين وآخرون، رسائل العدل والتوحيد، دراسة وتحقيق د/ محمد عمارة، ج٢/ص٨٢، ط. دار الشروق القاهرة، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

متأخر بين الإرادة وبين التكوين فلا «تتقدم فعله إرادته ولا إرادته فعله، بل إرادته للشيء إيجاده وكونه، وإذا أراده فقد كوَّنه، وإذا كوَّنه فقد أراده، ولا وقت بين إرادته للشيء وكونه»[1]

وهكذا استعان الشعراوي في بيانه لمسألة الأمر التسخيري بأسلوب التدرج في التناول، أولًا بتفريقه بين الموت والقتل، وذلك من خلال النص القرآني والسنة النبوية المشرقة، ثم توضيحه لمعنى الأمر التسخيري، فربط بين صدور الأمر الإلهي لهؤلاء القوم بأن يموتوا، وهو «أمر تحويل»[2] وبين صدور الأمر الإلهي للسماء والأرض بأن يأتيا طوعًا أو كرهًا من قبيل ضرب المثل من خلال النص القرآني؛ لتوضيح هذا التعبير القرآني، فالأمر للسماء والأرض هو «المجاز الذي يسمى التمثيل...، والغرض منه تصوير أثر قدرته في المقدورات لا غير، من غير أن يحقق شيئًا من الخطاب والجواب»[3]

---

[1] الإمام/ يحيى بن الحسين وآخرون، رسائل العدل والتوحيد، دراسة وتحقيق د/ محمد عمارة، ج٢/ص٨٢.

[2] البغوي، معالم التنزيل، ج١/ص١٦٧.

[3] الزمخشري، الكشاف، ج٤/ص١٨٤.

والمراد من قوله تعالى: (مُوتُوا) «ليس هو إثبات قوله، بل المراد أنه – تعالى – متى أراد ذلك وقع من غير منعٍ وتأخير»[1]

ومن الملاحظ سيادة اللون الوعظي على أسلوب الشعراوي في تناول موضوعه، ولكن في شكل انسيابي لا نكاد نستثقل وقعه، بل يشعر المستمع له أنه يسير معه في عرض خواطره بلا توقف أو ملل أو استثقال...وهذا يتلائم وطبيعة المجال الإعلامي الذي لا بُدَّ وألا يفتقر إلى الإمتاع والإقناع في آنٍ واحد فيما يقدمه.

ولقد أراد الشعراوي من خلال معالجته السابقة أن ينتهي بجمهوره إلى ضرورة التسليم المطلق لله – تعالى – في مثل هذه الأمور التي لا دخل للإنسان فيها، والتي لا يملك فيها خيارًا ولا اختيارًا، فالمراد في هذا وغيره يعود إلى طلاقة قدرته – تعالى – ويتم وفق إرادته – تعالى – وليس للمخلوق حيالها إلا الإذعان، وتحقيق مراد الله – تعالى – بالمُضيّ في حمل أمانة التكاليف دون خوف أو هلع، فالمقدر كائن وأمر الموت والحياة بيد الحق جل في علاه، وعلى المؤمن ألا يشوب اعتقاده غبار الجهل بالعلم النافع الذي ينجلي به الحق في الوجدان فيورث القلب السكينة والاطمئنان.

---

[1] الرازي، مفاتيح الغيب، ج٣/ص٤٧٦.

فالفكرة التي يريد الشعراوي أن تصل إلى جهوره - ويحسن فهمها حتى يصح معها الإيمان بالله - تعالى - من خلال الموضوع الذي يعالجه من وحي دلالات قصة هؤلاء القوم من بني إسرائيل - أنَّ هناك أمورًا لا بُدَّ وأن يعي الإنسان بأنه لا دخل له فيها، وبالتالي فهي تخضع لإرادة الله تعالى، وإذا كان المرء يؤمن بالله - تعالى - فهو يؤمن بقدره خيره وشره، ولا يشهد سليم العقل أنَّ من يكتنف قلبه هذا التصور الإيماني الصحيح يمكنه أن يفر من قَدرٍ قدَّره الله - تعالى - عليه، فهذا مناقض لمفهوم الإيمان الصحيح، إذن فهناك أشياء تحدث فوق إرادة الإنسان «كأن هب ريح فأغرق بضاعته، أو نزلت صاعقة فأحرقت ماشيته، أو علق أمله بمعينٍ فمات...يتجه من ذلك إلى أنَّ في الكون قوة أسمى من أن تحيط بها قدرته...فإنَّ حوادث الكون بأسره مستندة إلى واجب وجود واحد يصرفه على مقتضى علمه وإرادته، خشع وخضع ورد الأمر إليه فيما لقي»[1]

فهذه الأمور التي تحدث وتتم بمحض القدرة العليا، وعلى وفق الإرادة الإلهية تنفذ في خلق الله - تعالى - طوعًا أو كرهًا، كالموت والحياة وغيرهما من الأمور والأشياء التي لا يَدَ للإنسان فيها

---

[1] الإمام/ محمد عبده، رسالة التوحيد، ص٧١، ط. عيسى البابي الحلبي بمصر.

«فالزمان الذي تولد فيه، والمكان الذي تحيى به، والبيئة التي تنشأ في ظلها، والوالدان اللذان ينحدر منهما، وما تتركه الوراثة في دمك في غرائز وميول، والحياة والموت، والصحة والمرض، والسعة والضيق، ذلك ومثله لا يَدَ للإنسان فيه»[1]

فاهتمام الشعراوي بمثل هذه الموضوعات هو من قبيل سد الثغرات الفكرية التي من شأنها أن تمس العقيدة، وتؤدي إلى فسادها عند أصحابها، ولطالما شغلت مثل هذه المواضيع جمهور الناس بمختلف أوساطه الثقافية والاجتماعية؛ لذلك فقد اهتم بها الشعراوي، وما أن سنحت الفرصة لتناولها وعلاجها عرض لها الشعراوي، وأبرزها من خلال خواطره حول القرآن، والتي تبث من خلال دور الإعلام المختلفة، والتي لها دور فعال في إبراز مثل هذه المواضيع التي تجد رواجًا عند الناس؛ لكثرة أفكارهم حولها، ومن هذا المنطلق وَجَّه الشعراوي جمهوره إلى ضرورة تجنب مثل هذا الخلل الذي يعتري عقيدة المرء، ويفسد عليه إيمانه. فالحذر من الموت لا يجدي كما أنَّ الفزع والهلع لا يمدان أجلاً ولا يردان قضاء.

---

[1] الشيخ/ محمد الغزالي، عقيدة المسلم، ص١١٠، ط. دار الدعوة.

ولقد ذكر المفسرون تأويلات عدة في قوله تعالى: (فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا...)[1]

فذكر الطبري أن معنى الأمر في (مُوتُوا)؛ أي «فماتوا جميعًا»[2]

ورأى الزمخشري أنَّ هذا التعبير سيق على هذا النحو للدلالة على أنهم «ماتوا ميتة رجل واحد بأمر الله ومشيئته»[3] وزاد الزمخشري على ذلك بأنَّ هذه الميتة التي أماتها الله إياهم «ميتة خارجة عن العادة، كأنهم أُمِرُوا بشيء فامتثلوه امتثالًا من غير إباء ولا توقف، كقوله تعالى: (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)[4]»[5]

وذكر البغوي في الأمر (مُوتُوا) أنه «عقوبة لهم فماتوا وماتت دوابهم كموت رجل واحد»[6] وأورد الطبرسي قولين في ذلك؛ الأول: أنه «لما كان القول في الأكثر استفتاحًا للفعل وذلك مثل...قالت

---

[1] سورة البقرة، الآية: ٢٤٣.

[2] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج٢/ص٦٠٢.

[3] الزمخشري، الكشاف، ج١/ص٨٢.

[4] سورة يس، الآية: ٨٢.

[5] الزمخشري، الكشاف، ج١/ص٢٨٦.

[6] البغوي، معالم التنزيل، ج١/ص١٠٧.

السماء فهطلت؛ أي استفتحت بالهطلان...كذلك معناه ها هنا، فاستفتح الله بإماتتهم»[1] والرأي الثاني الذي أتى به: هو مما أدلى به ابن عباس في تفسيره لهذه الآية، وهو أنَّ معناه «أماتهم بقول سمعته الملائكة لضرب من العبرة، ثم أحياهم الله بدعا نبيهم حزقيل»[2]

وأورد القرطبي أنَّ الأمر في (مُوتُوا)[3] «أمر تكويني، نودوا، وقيل لهم: موتوا»[4]

وأورد الخازن في تفسير هذا معنيين في الأمور (مُوتُوا) فقال: «يحتمل أنهم ماتوا عند قوله – تعالى – موتوا، ويحتمل أن يكون ذلك أمر تحويل، فهو كقوله تعالى: (كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ)[5]»[6]

---

[1] الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٢/ص١٠٤.

[2] الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٢/ص١٠٤.

[3] لقد رد الرازي على المعتزلة في كون أن هذه الميتة خارقة للعادة – وأورد الزمخشري هذا الرأي في تحليله لهذه الآية، انظر الكشاف ج١/ص٢٨٦ – وقال: «...وأمَّا عند أصحابنا فإنه يجوز إظهار خوارق العادات لكرامة الولي، ولسائر الأغراض، فكأنَّ هذا الحصر باطل» الرازي، مفاتيح الغيب، ج٣/ص٤٧٦.

[4] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١/ص١١٤٣.

[5] سورة البقرة، الآية: ٦٥.

[6] الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، ج١/ص١٧٣.

ومما ذكره الألوسي في ذلك أنه «تمثل لإماتته تعالى إياهم ميتة نفس واحدة في أقرب وقت وأدناه وأسرع زمان، وأوحاه بأمرٍ مطاع لمأمور مطيع»[1]

ولقد أورد مثل ذلك الرأي صاحب الفتوحات الإلهية[2]

(هـ) موضوع الفرار من الموت والجهاد في سبيل الله تعالى

قال الشعراوي في شأن هؤلاء القوم الذين فروا «أليس الموت هو ما خافوه وفروا منه، واحتاطوا بالهرب منه؟ نعم، لكن لا أحد بقادر على أن يحتاط على قدر الله؛ لأنَّ الحق أراد لهم أن يعرفوا أنَّ أحدًا لا يفر من قدر الله إلا لقدر الله؛ ولذلك فسيدنا عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – عندما أراد للناس ألا تذهب إلى أرض فيها الطاعون، قالوا له: أتفر من قدر الله؟ قال عمر: نعم، نفر من قدر الله إلى قدر الله»[3]

لقد أراد الشعراوي أن يبث في نفوس جمهوره أنَّ بالحياة الدنيا أشياء فوق قدرة البشر، وإن ملكوا الاختيار في إرادتهم وتصرفاتهم؛

---

[1] الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، ج١/ص٥٥٣.

[2] سليمان بن عمر العجيلي الشافعي، الفتوحات الإلهية، انظر ج١/ص٩٩.

[3] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ ١٠٥٠-١٠٥١.

حتى تتحقق فكرة التكليف، إلا أنه في حياة الإنسان أشياء ما فوق قدرته، وفوق إدراك العقل البشري لها، لذا يجب أن يقف أمامها موقرًا ومعظمًا لقدرة الله تعالى، ومتأدبًا بالآداب الدينية حيالها فيما قد يعتريه منها من أحوال على مدار حياته، فلا تذهب به احتياطاته التي يتخذها عن الإيمان بقدر الله وقدرة الله – تعالى – وسلطانه فوق كل شيء، فلا تمنعه هذه الحيطة من القيام بأدواره المنوطة به درءًا من أن يصيبه مكروه، أو دفعًا لأمرٍ ما عنه، فلقد ضرب الله – تعالى – بقصة هؤلاء القوم من بني إسرائيل، الذين فروا خوفًا من الموت، واحتاطوا بالهرب منه، لنا المثل، وهذا ليس «لخصوصية في أشخاصهم، بل لأنهم من أفراد النوع الإنساني الذي أنزل القرآن لهدايتنا به»[1] وذلك ليتعظ الناس بهذا القصص، فيجتنبوا مثل هذا القصور في فهم الموضوعات العقدية المهمة، والتي تدفع بأصحابها إلى سلوك مجافٍ للدين، ومنافٍ لحسن الاعتقاد في الله – تعالى – مثلها سلك هؤلاء القوم الفارين في اعتقادهم من قدر الله – تعالى – وقدره.

---

[1] د/ مصطفي الصاوي الجويني، التفسير الأدبي للنص القرآني، ص٣٠، ط. دار المعرفة الجامعية.

ولذلك استحضر الشعراوي هذا الشاهد السابق من سيرة عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – لكي يوضح به معالجته لهذا المضمون، ولكي يصل بجمهوره إلى أنَّ الله – تعالى – إذا أراد الموت لأي من خلقه فهو يقع بلا منع أو تأخير. ويقول الشعراوي: إنَّ هذا الفهم الصحيح «يجعل الإنسان في تسليم مطلق بكل جوارحه لله – تعالى – صحيح على الإنسان أن يحتاط، ولكن القدر الذي يريده الله سوف ينفذ، والمؤمن يأخذ بالأسباب، ويسلم أمره إلى الله تعالى»[1]

ويستثير الشعراوي جمهوره عن طريق طرح سؤال عليهم، كوسيلة لإثارة انتباههم لما سيدلي به. يقول سائلًا: «لماذا لم يترك الله هؤلاء القوم من بني إسرائيل ليموتوا، وإلى أن يأتي البعث يوم القيامة ليحاسبهم؟»[2]

ويجيب الشعراوي على هذا السؤال، وبإجابته عليه نراه يظهر توضيحًا آخر للرسالة المرادة من موضوع القصة، وهو خطاب المجاهدين في سبيل الله – تعالى – لأنَّ المجاهدين قد ينتابهم

---

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ص١٠٥١.

[2] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ص١٠٥١.

الخوف من الموت، فيقعدهم عن القيام بمهمة الجهاد كراهية وخشية للموت، فيعلل الشعراوي سبب هذا الأمر التسخيري بالإحياء ثانية من الله – تعالى – لهم؛ لأجل أن توجد «العبرة والموعظة، ولتظل ماثلة أمام أعين الخلق، ومحفوظة في أكرم كتاب حفظه الله منهجًا للناس، وهو القرآن الكريم. إنَّ الحق أراد بالأمر عظة واعتبارًا وتجربة يموتون بأمر تسخيري، ويعودون إلى الحياة بأمر تسخيري آخر، ثم يعيشون الحياة المقدرة لهم، ويموتون بعدها حتف أنوفهم، ولتظل عبرة ماثلة أمام كل مؤمن حق، فلا يخاف الموت في سبيل الله تعالى»[1]

ويسوق الشعراوي السبب الثاني في إحياء هؤلاء القوم مرة ثانية، وهي أن تخدم هذه القصة قضية الجهاد في سبيل الله – تعالى – وذلك كما يرى الشعراوي «لا يظن ظان أنَّ القتال هو الذي يسبب الموت، إنما أمر الموت والحياة بيد واهب الحياة، وها هو ذا قول خالد بن الوليد على فراش الموت باقيًا ليعرفه كل مؤمن بالله: لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها، وما في جسدي شبر إلا وفيه

---

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ص١٠٥١.

ضربة بسيف أو طعنة برمح، وهاأنذا أموت على فراشي كما يموت العير، فلا نامت أعين الجبناء»[1]

وهكذا استدل الشعراوي على ما أدلى به بكلام خالد بن الوليد؛ ليعمق المعنى في قلوب جمهوره متمثلًا في موقف خالد بن الوليد، ثم ينظر إلى ذيل الآية في قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ)[2] وعلاقته بموضوع الفرار من الموت، الذي جسدته قصة هؤلاء القوم من بني إسرائيل، ويبدو في طرحه هذا ربطه الموضوع بواقع المجتمع...فيناقش لماذا يكون مثل هذا الموت فضل من الله – تعالى – على الناس؛ وذلك كي يشكل في وجدان المؤمنين معنًى إيمانيٍّ قويٍّ وهو التسليم لله – تعالى – في جميع ما يعتري المرء من أمور وأحوال، فيقول في شأن معنى الفضل المذكور في ذيل الآية تعقيبًا من الله – تعالى – على قصة هؤلاء القوم، أنه «لو مات هؤلاء القوم الذين خرجوا من ديارهم خوفًا من وباء أو عدو لكان هذا الموت فضلًا من عند الله – تعالى – لأنهم لو ماتوا بالوباء لماتوا شهداء، وهذا فضل من الله، ولو ماتوا في لقاء عدو وحاربوا في سبيل الله لنالوا الشهادة أيضًا، وذلك

---

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ص١٠٥١.

[2] سورة البقرة، الآية: ٢٤٣.

فضل من الله تعالى...لماذا يكون مثل هذا الموت فضلًا من الله؟ لأننا جميعًا سوف نموت، فإن مات الإنسان استشهادًا في سبيله، فهذا عطاء زائد، لكن أكثر الناس لا يشكرون»[1]

وعند هذا التحليل تعلو نغمة الشعراوي الدعوية في بث بعض المعاني التي من شأنها أن تزيد من الروح الإيمانية لدى الناس، وتصحح بشكل غير مباشر بعض القصور الذي يعتري الفكر الإيماني لديهم، والذي بدوره يشكل مسار حياتهم. يقول الشعراوي: «ولكن أكثر الناس لا يشكرون؛ لأنهم لا يعلمون مدى النعمة فيما يجريه الحق عليهم من أمور؛ لأنَّ الناس لو علمت مدى النعمة فيما يجريه الحق عليهم من أحداث بما فيها الإحياء والإماتة لشكروا اله على كل ما يجريه عليهم، فالحق سبحانه وتعالى لا يُجري على البشر، وهم من صنعته إلا ما يُصلح[2] هذه الصنعة، وإلا ما هو خير لهذه الصنعة»[1]

---

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ص١٠٥٢.

[2] ويظهر في عبارة الشعراوي هنا تأثره بكلام المعتزلة، حول أنَّ الله – تعالى – لا يفعل المصلحة إلا لعباده، يقول قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد: «العدل في اصطلاح =المتكلمين...المراد به أنَّ أفعاله كلها حسنة، وأنه لا يفعل القبيح، ولا يخل بما هو واجب عليه...وأنه سبحانه إذا آلم وأسقم، فإنما فعله لصلاحه ومنافعه» قاضي

والشعراوي بهذا الصنيع يحقق أهم أهداف التفسير الموضوعي، والذي تتمثل فيه أهم ملامح مدرسة التفسير الحديثة، وهي ربط الموضوع القرآني بالواقع الإنساني، فيقدم من خلال موضوعه «خدمة علمية وتربوية وثقافية ودعوية للمسلمين المعاصرين، ويساعد على حل مشكلاتهم، ومعالجة أمراضهم، والنهوض بمستواهم»[٢]

ولأجل الوصول إلى هذه النتائج يوظف المفسر الموضوعي كل ما لديه من وسائل؛ كي يصل إلى هدفه الإصلاحي من خلال الموضوع الذي يتناوله؛ ولذلك نجد الشعراوي يستخدم الاستدلال بالشعر في معالجة موضوعاته، كما يستشهد بالنص القرآني والسنة النبوية المشرفة، وأيضًا أسلوب ضرب الأمثال لتيسير المعلومة على أفهام الناس؛ أي يستعمل كل الأدوات التي من شأنها أن تساعده في توصيل المعنى الذي يبغيه من وراء طرحه لهذا الموضوع أو غيره؛

القضاة عبد الجبار بن أحمد، شرح الأصول الخمسة، تعليق الإمام أحمد بن الحسين بن أبي هاشم، حققه د/ عبد الكريم عثمان، ص١٣٢-١٣٣، الطبعة الثانية رمضان ١٤٠٨هـ/أبريل ١٩٨٨، طبعة مكتبة وهبة، عابدين، القاهرة.

[١] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ص١٠٥٢.

[٢] د/ صلاح عبد الفتاح الخالدي، التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، ص٥٤.

ولذا نجده يقول معقبًا على كلامه السابق «...وها هو ذا الشاعر العربي يقول:

ألا أيها الزاجري أحضر وأن اشهد اللذات هل أنت

فإن كنت تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت

إنَّ الشاعر يسأل من يوجه له الدعوة لا إلى القتال، ولكن إلى الاستمتاع بملذات الحياة قائلًا: ما دمت لا تملك لي خلودًا في هذه الحياة، ولا أنت بقادر على رد الموت عني، فدعني أقاتل في سبيل الله بما تملكه يداي»[1]

ثم ينهي الشعراوي موضوعه ببلورته وتلخصه في شكل رسالة قد استهل بها حديثه قبلًا، وما لبث أن أضحى يُذَكِّر بها؛ ليعطينا من وحيها ضرورة الإيجابية مع القصص القرآني لدحض أن يكون قراءته أو الاستماع إليه لمجرد الإمتاع والمعرفة، دون الانفعال المثمر بفعل صالح إيجابي، نتيجة استيعاب هذا القصص القرآني، الذي هو من مجمل القرآن الكريم، الذي جعله الله – تعالى – لهداية الأنام صالح الأعمال.

---

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ص١٠٥٢.

يقول الشعراوي: «وبعد الحديث عن محاولة هرب بعض من بني إسرائيل من قدر الله فأجرى عليهم الموت تسخيرًا، وأعادهم إلى الحياة تسخيرًا، وهذا درس واضح للمؤمنين، الذين سيأتي إليهم الأمر بالقتال في سبيل الله – تعالى – فلا تبالوا أيها المؤمنون إن كان القتال يجلب لكم الموت؛ لأنَّ الموت يأتي في أي وقت، يقول الحق: (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) [1] إنه الأمر الواضح بالقتال في سبيل الله دون مخافة للموت، لماذا؟ لأنَّ واهب الحياة وكاتب الأجل سميعٌ عليم، سميعٌ بأقوال من يقاتل وعليمٌ بنواياه» [2]

وهكذا ربط الشعراوي بين القصة الواردة في الآية ٢٤٣ من سورة البقرة وبين الآية ٢٤٤ من السورة نفسها، وجعل قصة هؤلاء القوم من بني إسرائيل الفارين من الموت، والآية التي تليها رسالة لأمة النبي ﷺ الذين سيؤمرون بالقتال في سبيل الله تعالى. وما ذهب إليه الشعراوي في هذا الربط بين الآيتين هو أيضًا ما أقره سالفًا الزمخشري من أنه سبحانه وتعالى: «ساق هذه القصة بعثًا

---

[1] سورة البقرة، الآية: ٢٤٤.

[2] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٢/ص١٠٥٢.

على الجهاد، ما أتبعه من الأمر بالقتال في سبيل الله»[1] وكذا ابن كثير يقول: «كما أنَّ الحذر لا يغني من القدر، كذلك الفرار من الجهاد وتجنبه لا يُقرب أجلًا، ولا يُباعده»[2] وذكر البغوي أنَّ الأشهر هو أنَّ هذا الخطاب للذين أحياهم الله – تعالى – فقال في قوله تعالى: (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ..)[3] أنه قال: «أكثر أهل التفسير أنَّ هذا خطاب للذين أحيوا، أمروا بالقتال في سبيل الله، فخرجوا من ديارهم فرارًا من الجهاد، فأماتهم الله، ثم أحياهم وأمرهم أن يجاهدوا»[4] ثم عاد البغوي وذكر أنه: «وقيل: الخطاب لهذه الأمة أمرهم بالجهاد»[5]

---

[1] الزمخشري، الكشاف، ج١/ص٢٨٦.

[2] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج١/ص٤٤١.

[3] سورة البقرة، الآية: ٢٤٤.

[4] البغوي، معالم التنزيل، ج١/ص١٨٦.

[5] البغوي، معالم التنزيل، ج١/ص١٨٦.

=ولقد ذكر ما أدلى به البغوي في هذه المسألة كل من:

الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، انظر ج١/ص١٠٥.

الرازي، مفاتيح الغيب، انظر ج٣/ص٤٧٨.

القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، انظر ج١/ص١١٤٦-١١٤٨.

الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، انظر ج١/ص١٧٣.

الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، انظر ج١/ص٥٥٤.

ولقد انتهى الشعراوي بعد ربطه بين الآيتين ٢٤٣ و٢٤٤ وهما قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٢٤٣) وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)[1] إلى أنَّ الآية ٢٤٤، والتي تحمل أمر القتال أنها خطاب لأمة النبي ﷺ؛ لأنها الأمة التي حول لها القرآن هذه القصة، وأردفها بهذا الأمر، وهو قوله تعالى: (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...) حتى يكون أوقع في نفوسهم.

ولقد اختار الشعراوي رأيه السابق من جملة آراء المفسرين، بينما ساق أغلب المفسرين جميع الآراء التي قيلت حول هذا، وربما قاموا بترجيح بعضها على بعض، دون الجزم برأي معين.[2]

---

[1] سورة البقرة، الآيتان: ٢٤٣، ٢٤٤.

[2] ومن هؤلاء المفسرين:
الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، انظر ج٢/ص٦٠٦.
البغوي، معالم التنزيل، ج١/ص١٨٦.
الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، انظر ج١/ص١٠٥.
الرازي، مفاتيح الغيب، انظر ج٣/ص٤٧٨.
القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، انظر ج١/ص١١٤٦-١١٤٧.
الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، انظر ج١/ص١٧٣.

ومن مدرسة التفسير الحديثة نجد الإمام/ محمد عبده يقول في هذه الآية: «إنَّ هؤلاء القوم فروا أمام أعدائهم دون قتال، وتركوا أوطانهم غنيمة للأعداء، فعاشوا أذلاء مشردين، في حياة أشبه بالموت، فلما عرفوا جنايتهم على أنفسهم، عادوا إلى جهاد أعدائهم وتحرير أوطانهم؛ فاستردوا كرامتهم، وعاشوا حياة كريمة جديرة بالمجاهدين الأبطال»[1]

ولقد استرعى انتباهي ما قاله محمد عبده في تفسيره لقصة هؤلاء القوم الفارين من الموت، بأنها ليست قصة. يقول: «إنَّ هذا مثلٌ لا قصة واقعية، وأنَّ الموت هنا مجازي»[2] وفي الحقيقة أنَّ هذا الرأي لم يصادفني في أي من التفاسير[3] التي رجعت إليها.

الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، انظر ج١/ص٥٥٤.

[1] السيد محمد رشيد رضا، نقلًا عن محمد عبده، تفسير المنار، ج١/ص١٠٢، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط. ١٩٧٢م.

[2] السيد محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج١/ص١٠٢.

[3] ومن تلكم التفاسير التي قمت بمراجعتها:

الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، انظر ج٢/ص٦٠٠-٦٠٦.

الزمخشري، الكشاف، راجع ج١/ص٢٨٦.

البغوي، معالم التنزيل، ج١/ص١٦٦-١٦٧.

ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، راجع ج١/ص٣٢٨.

الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، راجع ج١/ص١٠٣-١٠٤.

التستري، تفسير التستري، راجع تفسيره لسورة البقرة ص٣٦.

ثم استشهد ابن كثير بالمروية المأثورة عن سيدنا عمر بن الخطاب، والتي ساقها أيضًا الشعراوي، ثم تحدث عن الجهاد، فقال: «كما أنَّ الحذر لا يغني من القدر، كذلك الفرار من الجهاد وتجنبه لا يقرب أجلًا، ولا يباعده»[1] وأردف حديثه عن الجهاد بالمروية المأثورة عن سيدنا خالد بن الوليد[2] التي قالها على فراش الموت، والتي استشهد الشعراوي بها أيضًا.

ومن الجدير بالذكر أنَّ ابن كثير عني بقضية الفرار والخوف من الموت، وقضية الجهاد في إسهابٍ ملحوظ، فبدا تأثر الشعراوي في قضية مرامي القصة بالطبري والزمخشري، وظهره تأثره بابن

الرازي، مفاتيح الغيب، انظر ج٣/ص٤٧٣-٤٧٧.

القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، انظر ج١/ص١١٤٢-١١٤٦.

ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، راجع ج١/ص٤٤٠-٤٤١.

الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، ج١/ص١٧٢-١٧٣.

الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، ج١/ص٥٥٢-٥٥٣.

محمد الغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، راجع سورة البقرة ص٢٢-٢٣.

الشعراوي، تفسير الشعراوي، راجع ج٢/ص١٠٤٤-١٠٥٢.

[1] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج١/ص٤٤١.

[2] المرجع السابق، راجع ج١/ص٤٤١.

كثير، بينما نجد اهتمامًا كبيرًا من ابن كثير[1] بقضية «الفرار من الموت» بل وحديثه عن العبر المستفادة من هذه القصة، يقول ابن كثير: «في هذه القصة عبرة ودليل على أنه لا يغني حذر من قدر، وأنه لا ملجأ من الله إلا الله، فإنَّ هؤلاء فروا من الوباء طلبًا لطول الحياة، فعوملوا بنقيض قصدهم، وجاءهم الموت سريعًا في آنٍ واحد»[2]

وحينما ننتقل إلى مفسر مثل الطبرسي، نجده يذكر في غير إسهاب أنَّ الهدف من هذه القصة هو أنها «حجة على من أنكر

---

[1] وهناك من سبق ابن كثير من المفسرين كالرازي والقرطبي، غير أنهما لم يركزا على الأهداف التي سيقت من أجلها القصة، فنجد كل منهما ينحى منحًى يتناسب فيه وتياره الفكري، فنجد الرازي يأتي بالروايات التي قيلت حول هذه القضية، ويقسمها إلى ثلاثة روايات، وهي مجمل ما ذكره سابقوه من المفسرين، فالرواية الأولى: حول سبب خروجهم، والثانية: حول تركهم الجهاد، والثالثة: حول حزقيل النبي، الذي ندب قومه إلى الجهاد، فكرهوا وجبنوا، فأرسل الله عليهم الموت...ثم شغلته قضايا =فكرية أخرى، غير قضية الفرار من الموت، الرازي، مفاتيح الغيب، انظر ج٣/ص٣٧٦.

بينما اهتم القرطبي بالمسألة الفقهية الخاصة بالنزول في أرضٍ حل بها الطاعون، أو الفرار منها، دون إطراق منه للحديث عن أهداف القصة، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، انظر ج١/ص١١٤٢، ١١٤٦.

[2] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، انظر ج١/ص٤٤١.

عذاب القبر والرجعة معًا؛ لأنَّ إحياء أولئك مثل إحياء هؤلاء الذين أحياهم الله للاعتبار»[1]

فلم يشغل الطبرسي بقضية «الحذر من الموت»[2] بقدر ما أشغله المضمون السابق، وبالتالي حصر الهدف من القصة فيما أدلت به من إشارات عقدية، ولكن حول موضوع الإحياء والنشور بعد الموت والدار الآخرة وما شابهها من موضوعات فقط، دون الإشارة إلى أهداف أخرى.

ومما أورده المفسرون حول أهداف هذه القصة القرآنية - والتي نحن بصدد خواطر الشعراوي عنها - ما ذكره الطبري يقول: إنه «يجب المواظبة على الجهاد في سبيله، والصبر على قتال أعداء دينه...وتذكيرهم بأنَّ الإماتة والإحياء بيده دون خلقه...وبالتالي عليهم ألا يفروا، ويتحصنوا بالمنازل والحصون...»[3]

---

[1] الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٢/ص١٠٤.

[2] مما ألمحته في تفسير البغوي لهذه القصة، نقله لبعض المرويات التي أوردها الطبري في شأن الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت، ولكن دون مناقشة القضية أو إثارة لما تحمله القصة من أهداف، البغوي، معالم التنزيل، انظر ج١،ص١٦٦-١٦٧.

[3] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج٢/ص٦٠٠-٦٠٥.

وأورد الزمخشري أنَّ الهدف من هذه القصة هو: «تشجيع المسلمين على الجهاد والتعرض للشهادة، وأنَّ الموت إذا لم يكن منه بُدٌّ، ولم ينفع منه مفرٌّ؛ فأولى أن يكون في سبيل الله»[1]

وما أجمله الطبري والزمخشري من أهداف للقصة في بضعة أسطر، فصله الشعراوي في سطور، وأنشأ موضوعًا مستمد الدعائم والأفكار من المضامين السابقة للمفسرين وغيرهم كما سنرى.

الملخص:

وخلاصة القول من هذا الفصل أنَّ الشعراوي حينما تناولت خواطره قول الله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ)، والذي يحكي قصة قوم من بني إسرائيل فروا من ديارهم لحذر الموت، توقف عندها معالجًا لهذا الموضوع العقدي المهم، وهو «موضوع الخوف والفرار من الموت»، وذلك من خلال العناصر الآتية:

---

[1] الزمخشري، الكشاف، ج١/ص٢٨٦.

(أ) رسالة القصة القرآنية للأمة الإسلامية:

لقد تناول الشعراوي في هذا العنصر توضيح أنَّ القصص القرآني هو رسالة إلى الأمة الإسلامية؛ لأنها الأمة التي وُكِّل إليها أمانة حمل منهج الله – تعالى – إلى الأرض إلى أن تقوم الساعة، واقتضت تربية هذه الأمة بأن يقض عليها مثل هذا القصص؛ ليأخذوا العبرة منه، فكما يقول الشعراوي: ليتمثلوا المنهج لا من نظريات تتلى، ولكن من واقع دُرس، ووقع في المجتمع، وكان ذلك تمهيدًا وتأكيدًا منه على ضرورة الاعتبار بموضوع القصة، والاستماع إليها بِأُذن مهيأة لاستقبال العظة والعبرة، الذي يشير موضوع القصة القرآنية إليه؛ ولذلك أردف الشعراوي معالجته السابقة بالإشارة إلى موضوع العبرة الذي تحمله القصة، وهو أنَّ الله – تعالى – يملك الموت والحياة، فلا مجال إذن عند حسن الإيمان بهذا الاعتقاد أن يفزع أو يهلع أو يخشى أحدًا من موتٍ أو غيره.

(ب) إبهام عناصر الزمان والمكان والأشخاص في القصة القرآنية وأثرها على مضمونها:

لقد عالج الشعراوي هذا المضمون من خلال إبهام هذه العناصر في قصة هؤلاء القوم من بني إسرائيل، وأثرها على

موضوع القصة، وأكد على هذا من خلال عرض بعض النماذج من القصص القرآني التي أبهم فيها أحد هذه العناصر أو بعضها، أو تعيين وتشخيص القصص لبعضها، وذلك تبعًا لفائدته في موضوع القصة، ولقد نقد الشعراوي بهذه المعالجة – في شكل غير مباشر – ما ذهب إليه المفسرون من محاولة تحديد مكان هؤلاء القوم من بني إسرائيل، وكم عددهم، وسبب فرارهم، فذكر أنَّ هذه الأمور من شأنها إفقار القصة القرآنية لا إثراؤها؛ لأنَّ القرآن لا يقص تاريخًا، وإنما يعرض من قصص الأولين القدر الذي يناسب موضوع العبرة في القصة؛ ولذلك ينبه الشعراوي إلى ضرورة الالتفات إلى محل العبرة في القصة لا غير، إذ هو محل الاعتبار، ولقد عرضت لما ذهب إليه بعض أعلام المفسرين حول هذا.

(ج) الفرار من الموت:

لقد أوضح الشعراوي في هذا العنصر أنَّ الله – تعالى – أمات هؤلاء القوم من بني إسرائيل، ثم أحياهم؛ حتى يبين لهم ولمن بعدهم أنَّ أمر الموت بيده سبحانه وتعالى، سواء كان خوفهم من الموت نابعًا من أعدائهم، أو من وباء، أو من طاعون، فالأمر في جوهره لا يختلف، ثم أكد الشعراوي مرةً ثانية على أنَّ إبهام سبب فرارهم هنا قد أعطى للقصة ثراءً، وانتهى إلى أنَّ الخوف والحذر من الموت هو

العلة الحقيقية لخروجهم وفرارهم، بينما انشغل المفسرون بعرض سبب فرارهم، وتسابقوا في عرض المرويات حول ذلك، ورفض الشعراوي هذا الاتجاه في تفسير القصص القرآني، ولقد عرضت بعضًا مما أدلى به المفسرون حول هذا؛ ليتضح لنا رأي الشعراوي الذي تبناه في هذا الموضوع، واستهل به معالجته لموضوع القصة، ثم عالج الشعراوي مسألة الحيطة والحذر من القدر؛ لينتهي بجمهوره إلى أنه لا حذر من قدر الله تعالى.

(د) الموت أمر تسخيري:

لقد تناول الشعراوي هذا العنصر من خلال عرضه للفرق بين الموت والقتل، واستدل على معالجته بما ورد عن ذلك في النص القرآني، ممهدًا بهذا الشرح لمعنى الأمر التسخيري، وكذلك استحضر من النص القرآني ما ييسر به على أفهام الناس معنى الأمر التسخيري، وحللتُ ما أدلى به الشعراوي في هذه المسألة، من خلال العود إلى أقوال بعض العلماء والمفسرين حولها، وتناولت آراءهم في الأمر (مُوتُوا) ولقد ربط الشعراوي هذه المعالجة بواقع المجتمع في شكلٍ انسيابي لا يشعره المستمع له أو القارئ لخواطره، وهذا دأبه في غالب ما يعرض له من خواطره.

(و) موضوع الفرار من الموت والجهاد في سبيل الله تعالى:

يرى الشعراوي أنَّ موضوع قصة هؤلاء القوم من بني إسرائيل، يحمل أهدافًا عديدة منها خدمة قضية الجهاد في سبيل الله تعالى؛ لأنه قد ينتاب المجاهدين حالة الخوف من الموت فيقعدهم ذلك عن القيام بمهمة الجهاد، ولقد قام الشعراوي بربط هذه المعالجة بواقع المجتمع، من خلال طرح ما يحاكيها في سلوك الناس، من ظهور بعض القصور الذي يعتري الفكر الإيماني لديهم، والذي بدوره يشكل مسارهم في حياتهم، فيوجه الناس بطريقة غير مباشرة إلى أنه لو علم الناس مدى الخير فيما يُجريه الله – تعالى – عليهم من أحداث بما فيها الإحياء والإماتة لشكروا الله – تعالى – على كل ما يُجريه عليهم.

ثم ختم معالجته لهذا العنصر بتنويهه إلى أنَّ هذه القصة هي درسٌ واضحٌ للمؤمنين المجاهدين بألا يخافوا الجهاد؛ لأنه لا يجلب الموت؛ لأنَّ الموت يأتي في أي وقت.

ثم ربط الشعراوي الآية ٢٤٣ والتي قصت في إيجاز قصة هؤلاء القوم من بني إسرائيل بالآية ٢٤٤ التي تليها، والتي تحمل أمر الله – تعالى – للمؤمنين بالقتال، مؤكدًا بهذا الربط لما ذهب إليه – سابقًا – من أنَّ هذه القصة هي درس للأمة الإسلامية في قضية

الجهاد في سبيل الله، وقال بعض العلماء بأنَّ الأمر بالقتال في الآية ٢٤٤ لأمة القرآن.وذهب بعضهم إلى القول بأنَّ الأمر بالقتال لهؤلاء القوم من بني إسرائيل، واختار الشعراوي الرأي الأول، ولذا ربط بين مضمون الآيتين.

●●●

obeikan.com